غادة شبير على مسرح قصر الأونيسكو

أمل آخر للموسيقى والغناء

على مسرح قصر الأونيسكو، جرى ليل الأحد ١٥ نيسان الحفل الغنائي لغادة شبير (أستاذة في الغناء، ماستر بالموزيكولوجي، مسؤولة عن قسم البحث في جامعة الكسليك، كما تعزف على آلتي البيانو والعود) صاحبتها فرقة موسيقية قادها شربل روحانا على العود، علي الخطيب (رق) سمير سبليني (ناي) إيمان حمصي (قانون) طوني خليفة (كمان) عبود السعدي (باص) إيلي الخوري (بزق).

حين ترى الى الحشد الذي فاض عن صالة المسرح الكبير، يسعى الى سماع الموشح و«الغناء الأصيل» (التعبير الذي أصبح يثير حفيظة البعض، من افتقاد هؤلاء الى معنى الجمال الحقيقي) تسعد، كمن أعيد إليه الأمل لمرة جديدة بالإنتصار على القبح الدائر عندنا على الأصعدة كافة، الفنية خصوصا، ونشهد ترديها وانحطاطها عبر غناء يرسله البعض، بعضهم وبعضهن، عبر أعضاء أجسامهم وأجسامهن كلها، ما عدا الصوت. غادة شبير وإن لم تكن غايتها الجوائز او سوى ذلك، انتزعت برغم كل شيء، جائزة BBC عن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، في انتصار للموشح أولا، ولغادة ثانيا، وللبنان أولا وأخيرا، بعد تصفيات كبيرة للجنة متخصصة، منحت الجائزة لشبير التي تفوقت على فنانين متبارين من كل أنحاء العالم.

«الموشح» الذي تفوقت شبير بتقديمه هو نوع موسيقى دمج العرب بالأندلس، وهو يعبر عن اختلاط الحضارات، وتُغنيه شبير منفردة (سولو) في تنويعات لحنية أحيانا تمكنها من محضه بعض تلاوين صوتها في هوسها المنحاز الى ربع الصوت وينابيعه الشرقية.

الحضور في الصالة أعاد الأمل بذائقة صائبة وعادلة الى «الجميل»، كذلك فعلت اختيارات شبير وفرقتها الموسيقية، حين قدموا معاً «حزمة» إبداعات في الموشح، تناولت قديمه وجديده، وبدأته غادة شبير. بموشح معاصر من ألحان الرحابنة، غنته فيروز: «يا حبيبي كلما هب الهوى / وشدا البلبل نجوى حبه». بداية واثقة من شبير، شحذت لها كل الأكاديمية والمعرفية الموسيقية التي صقلت صوتها، وأدت برهافة شخصية وإن مفارقة بالطبع لطبيعة صوت فيروز المتفردة.

النبضات الإضافية

الموسيقى لم تلعب دورا مرافقا او ثانويا فحسب. كل موسيقي في هذا الحفل، كان أستاذا على آلته، يعرف أسرار وخبايا المادة التي يعزفها، وإن كنت أميل أكثر الى اقتصار الفرقة على التخت الشرقي المعروف لمثل هذا النوع من الغناء «الموشح»، بمعنى أنني لم أجد لزاما، إضافة «باص» عبود السعدي الى اكتمال العزف، مع أننا نقيم السعدي كثيرا في مجاله على آلته ونحترم خبرته ورهافته في مشاركات «جازية» إذا صح

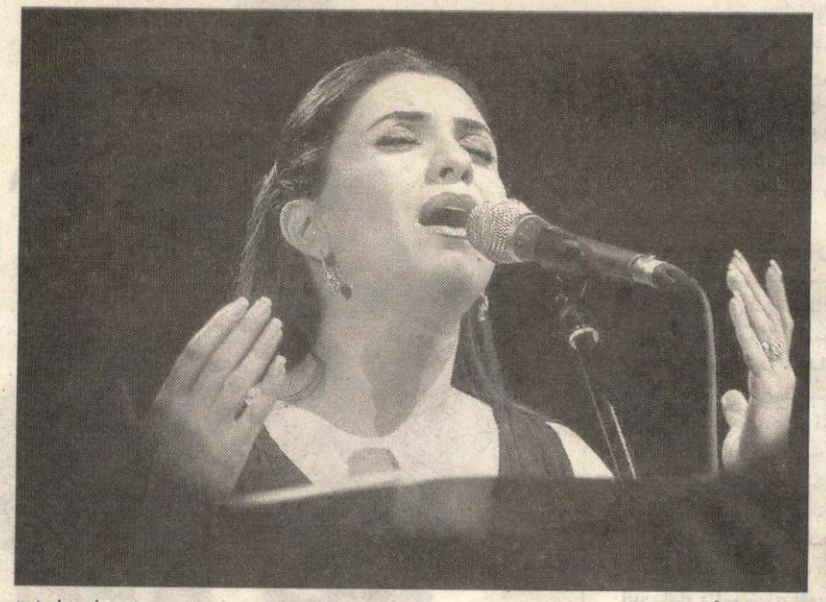

شبير في الأمسية (علي علوش)

التعبير، هو سيد فيها.

شكرت غادة لوزير الثقافة طارق متري تعاونه واحتضانه أنشطتها كما شكرت الحضور الدبلوماسي والعادي. الأكاديمية والتعليمية المحصلتان في صوتها، لم تحجبا الخفقات الفاتنة لهذا الصوت المدرب، هذه الخفقات التي أضافت على كل ما غنّته فزادته جمالا.

أغمضت عيني نشوة، مع حلول غناء موشح «مُنيتي عزّ اصطباري» لما لهذا الموشح من حياة فنية قديمة ذات طعم ورائحة ولون، وفيه وضع سيد درويش كل إلهاماته النغمية، وغنّته شبير باقتدار و«لوعة» كما تقتضي الكلمات ويقتضي الشعر الذي جُعل لهذا الموشح، وتقتضي الموسيقى الناحية التي تظل تتردد بين كوبليه وآخر في وحشة غياب المحبوب واستدعائه. بعذوبة، وبإتقان في القفلات وفي الـ «آمانات» موقعة بنقرات عود شربل روحانا التي تلبّست الحالة كاملة، ومحضتها الحنان المعروف في عزف هذا المبدع.

لا يسعنا طبعا الإحاطة بكل ما غنته شبير في هذه العجالة. صحيح ان شربل روحانا كان يقود الفرقة بالشكل المتعارف عليه لقيادة الفرق، سوى ان دور «الرق» بين يدي علي الخطيب لعب بدوره دورا قائدا، وهو أمر بديهي بالنسبة لمهارة الخطيب، وبالنسبة لأهمية الرق كتوقيع يشكل أمانا للجمل الموسيقية في خواتيمها، خصوصا في مثل هذا النوع من الإنشاد. «هل على الأستار هتك يا أهيل الحي» الموشح الذي ضمته غادة الى برنامج حفلها، ويتصف بصعوبته وذكاء ايقاعاته، وتفلته أحيانا من الخاتمة التي يظن المستمع انه واصل اليها لا محالة، ليُفاجأ بتحريف لذيذ ونقلة مغايرة تجعل من هذا الموشح حالة قائمة بذاتها.

التغريد

أفسحت المطربة بكل الاحترام اللازم، للتغريد كل على آلته الموسيقية، وبقيت واقفة تستمع اليهم في جانب المسرح، في حركة تدل على أخلاقيات نفتقدها في هذا الوقت. غادة لم تنسحب من المسرح تاركة للموسيقيين التغريد، بل استمعت اليهم بخشوع كما استمعوا اليها ورافقوها في العزف. غنّت الآلات كما فعل صوت غادة. فسمعنا غناء «العود» تبعه غناء طوني خليفة على آلته (الناي) ونحن من عشاق عزفه. إيمان حمصي أبدعت في جرسها «القانوني» (على القانون) ولوّنت في عزفها الذي يختزن مزاجا شخصيا وخبرة في مجال الموسيقى. أما «ناي» سمير سبليني فهو عالم الحنان المبحوح، الذي نراه الآن ولى الى الأبد.

لعب علي الخطيب على رقه في «ديو» جمعه مع طوني خليفة على الناي، فبان سحر انصهار الآلات بعيدا عن تصادم الحضارات.

«هل على الأستار هتك» ثم «حيّر الأفكار» موشحان لسيد درويش غنتهما غادة بتمكن، بعد ان غردت في وصلة «تلوينية» أظهرت فيها كل طاقات وعُرب صوتها، وانسحب هذا الجمال على طقطوقة رياض السنباطي «على بلد المحبوب» ثم تنويعات لم تنتزع من صوت غادة أي هنّة او تعب، بل زادته تألقا.

عناية جابر